يونية عام ١٨١٥ وكانت الحرب دائرة بين جيوش نابليون وجيوش الدوق ولينغتون. المعركة تحسم أمورا كثيرة، ربما كان أقلها مصير نابليون. توشك المعركة على الانتهاء، ولكن أحدا لا يعرف من المنتصر. استطاع ناثان عبر إخوته، وعيونهم وسرعة مراسليه أن يعرف قبل سواه بنتيجة المعركة. يحكي أن ناثان تسلم بنفسه الرسالة وعرف بالأحبار، ويحكي أنه أمر مساعديه ببيع أسهمه في سوق الأوراق المالية في لندن. يقال سرى الهمس في السوق: «ناثان يبيع، ناثان يعرف، لا بد أنه يعرف!» باع الكل. بعد قليل، اشتري ناثان. ربما حكى الحكاية كاره للرجل وملته، ربما اشترى ناثان دون أن يبيع أولا ليوهم الآخرين بأن نابليون انتصر. المؤكد، وهذا ما تجمع عليه كتابات عديدة، أنه عرف بالخبر فكان استخباره العنصر الأساس في مضاعفة ثروته. الحكايات كثيرة ولا أرغب في الدخول في المزيد من التفاصيل التي قد لا تهم القارئ، أو تثير فيه السؤال: ما الخطأ في توظيف رجل أعمال لدهائه ومكره ما دامت التجارة كما يقول المثل الدارج شطارة وللشاطر بالعربية معنيان، فصيح ودارج!

لم أذهب إلى الروتشيلدات الخمسة ووالدهم أمشل ماير روتشيلد رغبة مني في الذهاب إليهم، أو انشغالا بسيرة أثرياء اليهود دون سواهم. ويقيني أن جدي الأكبر المعاصر لجوته وأمشل روتشيلد والجبرتي لم يكن يعرف أيا منهم، ولم يشغله اختيار هذا للصرافة وذاك للشعر وذلك للتأريخ، وإن لم يحل ذلك دون أن يدق الخوف بابه في قريته حين علم أن جيوش الفرنسيس دخلت مصر، ولا أن يردد بمزيج من الغضب والأسى مع أهل البلد «لا حول ولا قوة إلا بالله» حين سمع أن الولد الذي وفقه الله في قتل قائد الفرنسيس نُفِّذ فيه حكم الإعدام. جاءوا إليّ ولم أذهب إليهم، روتشيلد قناة السويس حفيد روتشيلد براميل النبيذ، وروتشيلد بلفور حفيد روتشيلد قناة السويس. الروتشيلدان أتيا من فرع واحد هو فرع ناثان الذي استقر في لندن بعد أن اختار والده أن تكون مركزا لمصارف العائلة، هناك الفروع الأخرى والروتشيلدات